لدَهْدَهَني[1] من أعلى جبل فى الطريق . والآخَرُ أنّى كنت أفِدُ مع هذا كله على أبن عبّاد — وهو رجل أساء إلىّ وأوحشنى ، وحاول على لسان صاحبه أبن شاهويه أن أنقلب إليه ثانيا ؛ وكنت أكره ذلك ، وما كنتُ[2] آمَنُ ما يكون منه ومنّى ، والمجنون[3] المطاع ، مهروب منه بالطباع .

وبعد ، فليس لى [حَاجَةٌ] [4] فى مثل هذه الخدمة ، لأن صدر العمر خلا منّى عاريا من هذه الأحوال ، وكان وسطه أضعفَ حَملا ، وأبعدَ من القيام به والقيام عليه .

فقال : ما كان عندى هذا كلّه .

قال : إنّى أريد أن أسألك عن أبن عبّاد فقد أنتجعتَه وخبرتَه وحضرتَ (٤) مجلسه ، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته ، وعن علمه وبلاغته ، وغالبِ ما هو عليه ، ومغلوب ما لديه ؛ فما أظنّ أنّى أجد مثلك فى الخبر عنه ، والوصف له ، على أنّى قد شاهدته بهمذان لمّا وافى ، ولكنّى لم أعْجُمْه ، لأن اللُّبث كان قليلا ، والشغلَ كان عظيما ، والعائقَ كان واقعا .

فقلت : إنّى رجل مظلوم من[5] جهته ، وعاتبٌ عليه فى معاملتى ، وشديدُ الغيظ لحرمانى ، وإن وصفتُه أرْبَيْتُ[6] منتصِفا[7] ، وانتصفتُ منه مسرِفا[8] ،

(١) دهدهه : دحرجه .
(٢) « وما أكتب » .
(٣) « والمجكوت » .
(٤) موضع هذا اللفظ فى الأصل حروف مطموسة تتعذر قراءتها ، وسياق الكلام يقتضى ما أثبتنا أو ما يفيد معناه .
(٥) « أمر » .
(٦) أربيت : زدت .
(٧) ورد فى الأصل بعد هذه الكلمة لام وميم ؛ ولعلهما من زيادات النساخ ، لاستقامة الكلام بدونهما .
(٨) « مشترفا » ، وقد ورد بعد هذه الكلمة فى الأصل حاء وياء ؛ ولعلهما من زيادات النساخ .

فلو كنتُ معتدل الحال بين الرضا والغضب ، أو عاريا منهما جملة ، كان الوصف أصدق ، والصدق به أخلَق ؛ على أنى عملت رسالة فى أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نَفَسى الغزير ، ولفظى الطويلَ والقصير ، وهى فى المسوّدة ولا جسارة لى على تحريرها ، فإنّ جانبه مَهيب ، وَلَمكره دييب ، وقد قال الشاعر :

إلى أن يَغيبَ[1] المرء يُرجَى ويُتَّقَى ولا يَعلم الإنسانُ ما فى المغيَّبِ

قال : دع هـذا كلَّه ، وأنسخ لى الرسالة من المسوّدة ، ولا يَمنعنَّك ذاك فإنّ العين لا ترمقُها والأذنَ لا تسمعها واليدَ لا تنسخها .

وبعد ، فما سألتك إلا وصفه بما جُبِل عليه ، أو بما كسب[2] هو بيديه من خير وشرّ ؛ وهذا غير منكر ولا مكروه ، لأمر الله تعالى ، فإنّه مع علمه الواسع ، وكرمه السابغ ، يصف المحسن والمسىء ، ويُثنى على هـذا ويَنْثُو[3] على ذاك ؛ فأذكر لى من أمره ما خفىّ اللفظ به وسبق الخاطرُ إليه وحضر السببُ له .

قلت : إنّ الرجل كثيرُ المحفوظ حاضرُ الجواب فصيحُ اللسان ؛ قد نَتَف من كل أدب خفيفِ أشياء ، وأخَذَ من كلّ فنّ أطرافا ؛ والغالب عليه كلام المتكلّمين المعتزِلة ، وكتابته مهجّنة بطرائقهم ، ومناظَرته مشوبة[4] بعبارة الكتّاب ؛ وهو شـديد التعصّب على أهل الحكمة والناظرين فى أجزائها كالهندسة والطّبّ والتنجيم والموسيقى والمنطق والعَدد ؛ وليس [عنده][5] بالجزء

(١) يغيب ، أى يموت . وفى الأصل « يعيش » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى .

(٢) « كتب » بالتاء .

(٣) « ينثو على ذلك » ، أى يخبر عنه بذنوبه ، يقال : « نثا على فلان ذنوبه » ، إذا أخبر بها عنه وأشاعها .

(٤) كذا فى معجم الأدباء . والذى فى الأصل : « مسترقة » .

(٥) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ ومكانها كلمة مطموسة تتعذر قراءتها .

الإلمى خبر ، ولا له فيه عين[١] ولا أثر ؛ وهو حَسَن القيام بالعَروض والقوافى ؛ ويقول الشِّعر ، وليس بذاك ؛ وفى بديهته غزارة . وَأما رويّته[٢] فخوّارة ؛ وَطالعُهُ الجوزاء ، وَالشِّعْرى قريبة منه ؛ ويتشيّع لمذهب أبى حنيفة ومقالةِ الزّيديّة ، ولا يرجع إلى الرقّة والرأفة والرحمة ، والناس كلُّهم محجمون عنه ، لجرأته وسلاطته واقتدارِه و بسطتِه ؛ شديد العقاب طفيفُ الثواب ، طويلُ العتاب ؛ بذىء اللسان ؛ يُعطِى كثيرا قليلا (أعنى يعطى الكثيرَ القليل) ، مغلوبٌ بحرارة الرأس ، سريعُ الغضب ، بعيد الفيْئَة[٣] قريبُ الطِّيَرة ، حسودٌ حقودٌ حديد ، وحسدُه وقفٌ على أهل الفضل ، وحِقْدُه سارٍ إلى أهل الكفاية ؛ أمّا الكتّاب والمتصرّفون فيخافون سطوته ، وأمّا المنتجعون[٤] فيخافون جفوته ؛ وقد قَتَل خَلْقا ، وأهلك ناسا ، ونَفَى أُمّة ، نخوةً وتعنُّتا وتجبُّرا وزَهْوا ؛ وهو مع هذا يخدعه الصبىّ ، ويَخلُبه الغبىّ ؛ لأنّ المَدخَل عليه واسع ، والمأتَى إليه سهل ؛ وذلك بأن يقال : مولانا يتقدّم بأن أُعارَ شيئا من كلامه ، ورسائلِ منثورِه ومنظومِه ؛ فما جُبْتُ الأرض إليه[٥] من فَرْغَانةَ ومصرَ وتفليسَ إلاّ لأستفيد كلامَه وأفْصُحَ به ، وأتعلّم البلاغةَ منه ؛ لكأنّما رسائل مولانا سُوَر قرآن ، وفِقَرُه فيها آيات فرقان ؛ واحتجاجُه من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوقَ برهان ؛ فسبحان من جَمَع العالَمَ فى واحد ، وأبرز جميع قدرتِه فى شخص .

---

(١) « جبن ولا إبر » .

(٢) كذا فى معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٦ الطبعة الأولى . والذى فى الأصل : « بديهته » ولا يستقيم مع العبارة السابقة .

(٣) « النية » . والتصحيح عن معجم ياقوت . والفيئة : الرجعة .

(٤) « المنكبفون » .

(٥) « إلا من فرغانة » وقوله « إلا » زيادة من الناسخ .

فيلين عند ذلك ويذوب ، ويَلهَى عن كلّ مهمّ له ، ويَنسى كلّ فريضة عليه ويتقدم إلى الخازن (١) بأن يُخرج إليه رسائله مع الورَق (٢) والورِق ويسهّل (٣) له الإذنَ عليه ، والوصولَ إليه ، والتمكّنَ من مجلسه ؛ فهٰذا هٰذا .

ثم يعمَل فى أوقات كالعيد والفصْل شِعرا ، ويدفعه إلى أبى عيسى بن المنجّم ، ويقول : قد نحلتُك هذه القصيدة ، امدحنى بها فى جملة الشعراء ، وكن الثالث من الهَمَج (٤) المُنْشدين (٥) . فيفعل أبو عيسى — وهو بغدادىّ محكّك (٦) قد شاخ على الخدائع وتَحنّك — ويُنشِد ، فيقول له عند سماعه شِعرَه فى نفسه ووصْفَه بلسانه ، ومدْحَه من تجبيره : أعِدْ يا أبا عيسى ، فإنّك — والله — مُجيد زِهْ يا أبا عيسى والله ، قد صفا ذِهنُك ، وزادت قريحتُك ، وتنقّحتْ قوافيك ؛ ليس هذا من الطِّراز الأوّل حين أنشدتَنا فى العيد الماضى ، مجالسُنا تُخرّج الناس وتَهَب لهم الذكاء ، وتزيد لهم الفطنة ، وتحوّل الكَوْدَنَ (٧) عَتيقا ، والمحمّرَ (٨) جَوادا ؛ ثم لا يصرفه عن مجلسه إلاّ بجائزة سنيّه ؛ وعطيّة هنيّه ؛ ويغيظ الجماعة من الشعراء وغيرِهم ، لأنّهم يعلمون أن أبا عيسى لا يَقرِض مِصْراعا ولا يَزِنُ بيتا ولا يذوق عَرُوضا .

قال يوما : من فى الدار ؟ فقيل له : أبو القاسم الكاتب وأبن ثابت ؛ فعَمِل

---

(١) « الحازق » .
(٢) يريد بأحد الورقين : الدراهم المضروبة ، وهو بفتح الراء وكسرها .
(٣) كذا فى معجم الأدباء ج ٢ ص ٢٧٧ الطبعة الأولى . والذى فى الأصل : « ويهلم » ؛ وهو تحريف لا معنى له .
(٤) « الهيج » ، وفى حروفه قلب .
(٥) « الفسدين » وما أثبتناه عن معجم الأدباء .
(٦) محكك ، أى مجرب مدرب .
(٧) الكودن : الفرس الهجين . والعتيق : عكسه .
(٨) المحمّر : الفرس الهجين .

فى الحال بيتين ، وقال لإنسان بين يديه : إذا أذنتُ لهذين فأدخلْ بعدهما بساعة وقل : « قد قلتُ[١] بيتين ، فإن رسمتَ لى إنشادَهما أنشدتُ » وأزعم أنّك بُدِهْتَ بهما ، ولا تجزع من تأفُّفى بك ، ولا تفزع من نُكْرى عليك ، ودفعَ البيتين إليــه ، وأمره بالخروج إلى الصحن ؛ وأذن للرّجلين حتى وَصلا ؛ فلما جلسا وأنِسا[٢] دخل الآخر[٣] على تَفِيئتِهما[٤] ، ووقف للخدمة ، وأخذ يتلمّظُ يُرِى أنّه يَقرِض شِعرا ؛ ثم قال : يا مولانا ، قد حضرنى بيتان ، فإن أنت أذنتَ لى أنشدتُ . قال : أنت إنسان أخرَقُ سخيف ، لا تقول شيئا فيه خير ، اِكفنى أمرَكَ وشعرَكَ . قال : يامولانا ، هى بديهتى ، فإن نَكِرْتَنى[٥] ظلمتَنى ؛ وعلى كلّ حال فاْسمع ، فإن كانا بارعَين و إلاّ فعامِلْنى بما تحبُّ[٦] قال : أنت لجوج ، هاتِ . فأنشد :

يا أيّها الصاحب تاجَ العلا لا تجعلَنِّى نُهْزَةَ الشامتِ
بمُلحِــدٍ يُكنَى أبا قاسم ومُجْبَرٍ[٧] يُعزَى إلى ثابتِ

قال : قاتلك الله ، لقد أحسنتَ وأنت مسىء . قال لى أبو القاسم : فكدتُ أتفقّأ غيظا ، لأنّى علمت أنه من فَعَلاته المعروفة ؛ وكان ذلك الجاهل لا يَقرِض

(١) ورد فى الأصل بعد قوله : « قلت » جيم وميم وهما زيادة من الناسخ ، لاستقامة الكلام بدونهما ، ولأنهما لم يردا فى معجم الأدباء . ويلاحظ أن فى هذه النسخة كثيرا من الحروف الزائدة .

(٢) كذا فى معجم الأدباء . والذى فى الأصل : « موانسا » ؛ وهو تحريف .

(٣) « الأحمر » وما أثبتناه عن معجم الأدباء .

(٤) « تفيائهما » ؛ وهو تحريف . « ودخل على تفيئتهما » ، أى على أثرهما . وتفيئة الشىء : حينه وزمنه .

(٥) « تكسرتنى » ؛ وهو تحريف . وفى معجم الأدباء « كهرتنى » .

(٦) « يحب » .

(٧) « مجبر » بفتح الباء ، أى منسوب إلى مذهب الجبرية بالتحريك ، وهم فرقة يقولون : ليس للعبد قدرة ، وإن الحركات الإرادية بمثابة الرعدة والرعشة .

بيتا . ثم حدّثنى الخادمُ الحديثَ بنصّه .

والذى غلّطه فى نفسه وحمَلَه على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه ، أنّه لم يُجْبَهْ قطُّ بتخطئة ، ولا قوبل بتسوئة ؛ ولا قيل له : أخطأتَ أو قصّرتَ أو لحنتَ أو غَلِطتَ أو أخللْت ، لأنّه نشأ على أن يقال : أصاب سيّدُنا ، وصدَقَ مولانا ، ولله دَرُّه ، ولله بَلاؤه ، ما رأينا مِثلَه ، ولا سمعنا مَن يقارِبه ، مَن (أبنُ عبدِ كان) مضافا إليه ؟ ومَن (أبنُ ثوابةَ) مَقيسا عليه ؟ ومن (إبراهيم بن العباس) الصُّولىُّ [إذا جُمِع بينهما] ؟ مَن (صريع الغوانى) مَنْ (أشْجَع السُّلمىّ) إذا سَلَك طريقهما ، ومَتَحَ برشائهما ، وقَدَح بزَنْدِهما ؟ قد أستدرك مولانا على (الخليل) فى العَروض ، وعلى (أبى عمرو بن العَلاء) فى اللّغة وعلى (أبى يوسفَ) فى القضاء ، وعلى (الإسكافىّ) فى الموازَنة ، وعلى (أبن نُوبختَ) فى الآراء والدّيانات ، وعلى (أبن مُجاهد) فى القراءات ؛ وعلى (أبن جرير) فى التفسير ، وعلى (أرسطوطاليسَ) فى المنطق ، وعلى (الكِنْدىّ) فى الجزء[1] ، وعلى (أبن سيرين) فى العبارة ، وعلى (أبى العَيْناء) فى البديهة ، وعلى (أبن أبى خالد) فى الخطّ ، وعلى (الجاحظ) فى الحيوان ، وعلى (سهل بن هرون) فى الفِقَر ، وعلى (يوحنّا) فى الطبّ ؛ وعلى (أبن رَبَن)[2] فى الفردوس ، وعلى (عيسى بن دَأْب) فى الرواية ، وعلى (الواقدىّ) فى الحفظ ، وعلى (النّجار) فى البَدَل[3] ، وعلى (ابن ثوابة) فى التفقّه[4] ، وعلى (السَّرِىّ السَّقَطىّ) فى الخَطَرات والوساوس ، وعلى (مُزَبِّد)[5]

(١) يريد الجزء الذى لا يتجزأ ، وهو ما يسمى بالجوهر الفرد .

(٢) « ابن ربن » هو على بن ربن كان طبيبا مشهورا ، ألف كتابا اسمه فردوس الحكمة ، وكان يهوديا ثم أسلم على يد المعتصم .

(٣) البدل : اسم كتاب فى الكلام لأبى عبد الله الحسين بن محمد النجار .

(٤) فى معجم الأدباء « وعلى بنى ثوابة فى التفقية » .

(٥) هو أبو إسحاق مزبد المدنى اشتهر بنوادره المضحكة وبسرعة خاطره ولطيف ملحه .

فى النوادر ، وعلى (أبى الحسن العروضىّ) فى استخراج المعمّى ، وعلى (بنى برْمَك) فى الجود ، وعلى (ذِى الرياستين) فى التدبير ، وعلى (سَطِيح) فى الكهانة ، وعلى (ابن المحيّا خالد بن سنان العَبْسىّ) فى دعواه[١] ؛ هو والله أولى بقول (أبى شريح أوس بن حَجَر التميمىّ) فى (فَضَالَة بن كلْدة) :

الألمعىُّ الّذى يظنّ بك الظنّ * كأنْ قد رأى وقد سمعا

قد يَسبق المدحُ إلى من [لا[٢]] يستحقّه ، ويصير المال إلى من لا يليق به أن يكون مَيِّلا[٣] حتى إذا وجد من كان لذلك مستحقا مُنِحَه ووُفِّر عليه .

فتراه عند هذا الهَذَر وأشباهه يتلوّى ويتبسّم ، ويطير فرحا ويتقسّم ويقول : ولا كذا[٤] ؛ ثمرةُ السَّبْق لهم ، وقصّرْنا أن نَلحقهم ، أو نَقْفُوَ أثرَهم ونشقَّ غُبارَهم أو نَرِدَ غِمارَهم . وهو فى كل ذلك يتشاكى ويتحايل ، ويَلوِى شِدْقَه ، ويبتلع ريقَه ، ويَرُدُّ كالآخذ ، ويأخذ كالمتمنِّع ، ويَغضَب فى عَرْض الرضا ، ويرضى فى لَبُوس الغضب ، ويتهالك ويتمالك ، ويتقابل[٥] ويتمايل ؛ ويحاكى الموسسات ، ويَخرُج فى أصحاب السماجات ؛ ومع هذا كلّه يظنّ أن هذا خافٍ على نُقّادِ الأخلاق وجَهابذة الأحوال ، والذين قد فرّغهم الله لتتبّع

---

(١) خالد بن سنان رووا أنه كان نبيا وكان فى زمن الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام وكان بأرض عبس . ولم نجد فيا بين أيدينا من الكتب من لقبه بابن المحيا ، وقد وردت كنيته فى معجم الأدباء بأبى الحياة .

(٢) لم ترد هذه الكلمة التى بين مربعين فى الأصل ؛ والسياق يقتضيها .

(٣) « ميتا » ؛ وهو تحريف لا يستقيم به المعنى . والميّل ، ذو المال .

(٤) « ولا كذا » : كلمة ظاهرها الرغبة فى الاقتصاد فى المدح ، وباطنها الحث على الإكثار منه .

(٥) « ويتقابل » ، أى تتقابل أجزاؤه بعضها ببعض ، وذلك إذا استوى فى مجلسه ولم يمل إلى ناحية .

الأمور ، واستخراجِ مافى الصدور ، وأعتبار الأسباب ؛ وذلك أنه ليس بجيّد العقل ، ولا خالصِ الحُمقِ ؛ وكلّ كَدَر بالتركيب فقلما يصفو ، وكل مركّب على الكدَر فقلّما يعتدل ؛ إلا أن الانحراف متى كان إلى جانب العقل كان أصلحَ من أن يكون إلى طرَف الحُمق ؛ والكامل عزيز ، والبرىء من الآفات معدوم ؛ إلاّ أنّ العليل إذا قيّض الله له طبيبا حاذقا رفيقا ناصحا كان إلى العافية أقرب ، وللشفاء أرجى ، ومن العطَب أبعَد ، وبالاحتياط أعلَق ، أعنى أنّ العاقل إذا عَرَف من نفسه عيوبا معدودة ، وأخلاقا مدخولة ، استطَبَّ لها عقلَه ، وتطبَّبَ فيها بعقله ، وتولَّى تدبيرَها برأيه ورأي خُلْصانه ، فنَفى ما أمكن نفيُه ، وأصلَحَ ما قُبِل إصلاحُه ، وقَلَّل ما أُستطاع تقليلَه ؛ فقد يجد الإنسان الرَّمَصَ فى عينه فينحّيه ، ويُبتلَى بالبَرَص فى بدنه فيخفيه .

وقد أفسده أيضا ثقةُ صاحبه[1] به ، وتعويلُه عليه ، وقلّةُ سماعِه من الناصح فيه ؛ فمُذِر[2] بازدهاء المال والعلمِ والاقتدارِ والأمر والكفايةِ وطاعةِ الرجال وتصديقِ الجلساء والعادةِ الغالبة ؛ وهو فى الأصل مجدود[3] لا جَرَم ليس يُقِلّه مكانٌ دلالاً وترَفا ، وعُجْبا وتيها وصَلفا ؛ وأندراء[4] على الناس ، وأزدراء للصغار والكبار ، وجَبْها للصادر والوارد ؛ وفى الجملة ، صِغارٌ[5] آفاته كبيرة ، وذنوبُه جَمّة * ولكنّ الغِنَى ربٌّ غفورُ * قال : ما صَدْرُ هذا البيت ؟ فأنشدتُه الأبيات ، وهى

---

(١) يريد بصاحبه : الملك الذى استوزره ، وهو مؤيد الدولة أو فخر الدولة أخوه فكلاهما قد استوزره .

(٢) « فقدر » بالقاف والدال .

(٣) المجدود : المحظوظ .

(٤) الاندراء : الاندفاع والتهجم .

(٥) « تعار » .

لعروةَ بنِ الوَرْد فى الجاهليّة ، وكان يقال له عروة الصعاليك ، لأنّه كان يؤويهم ويُحسِن إليهم كثيرا :

ذَرِينى للغِنَى أسعى فإنّى ... رأيتُ الناسَ شرُّهُمُ الْفَقِيرُ
وأبعَدُهُمْ وأهونُهمْ عليهم ... وإن أمْسَى له حَسَبٌ وخِيرُ
ويُقصِيه النَّدِىُّ وتزدَريه ... حليلتُه وينهره الصغير
وتَلْقَى ذا الغِنَى وله جَلَالٌ ... يكاد فؤادُ صاحبه يَطيرُ
قليلٌ ذنبُه والذنب جَمٌّ ... ولكنَّ الغِنَى ربٌّ غفورُ

فقال : لا شكّ أنّ المُسَوَّدة جامعةٌ لهذا كلّه . قلتُ : تلك تَجَزَّع[1] فى دَسْتِ كاغَدٍ فرعونىّ . فقال : أجِدْ[2] تحريرَها ، وعلىّ بها ، ولك الضَّمان ألّا يراها إنسان ، ولا يدور بذكرها لسان .

قلتُ : السمعَ والطاعة . قال : قد تركْنا من حديثه ما هو أولَى مما مرَّ بنا ؛ (٥)
كيف بلاغتُه من بلاغة ابن العميد ؟ وأين طريقتُه من طريقة ابن يوسفَ والصابى ؟ قلتُ : قد سألتُ جماعة عن هذا ، فأجابنى كل واحد بجواب إذا حكيتُه عنه كان ما يقال فيه ألصَق ، وكنتُ من الحُكم عليه وله أبعَد .

قال : صِفْ هذا ؛ قلتُ : سألتُ ابن عبيد الكاتبَ عن ابن عبّاد فى كتابته فقال : يرتفع عن المتعلّمين فيها بدرجة أو بدرجتين . وقال علىّ بن القاسم : هو مجنونُ الكلام ، تارةً تبدو[3] لك منه بلاغةُ قُسّ ، وتارة يلقاك بعىّ باقل ؛ تحريف كثير فى المعانى ، وإحالةٌ فى الوضع ، وغلطٌ فى السَّجْع ، وشرودٌ عن الطبع .

(١) تجزع ، أى تجزأ . والدست : أربع وعشرون ورقة ، كما فى المعجم الفارسى الإنجليزى لاستاينجاس . والكاغد : الورق ، معرب . وفرعونى ، أى مصرى .
(٢) فى الأصل : « أجد » ؛ والميم زيادة من الناسخ .
(٣) « كنمو » ؛ وهو تحريف لا معنى له .